

مدخل: كان ذلك سنة 1871 عندما عانقت الطبيعة كبرياء رجل جزائري لتحبل بمعجزة. مدفع الكروش باب آخر يفتح على الأسطورة الكامنة في عمق الحقيقة. "بوثعلاوت" راود الأوهام فاستحالت إلى حقيقة، حيث اتحدت البساطة بالشجاعة واستبدت بالعدم عندما اختفت الوسائل. النص : قرية "مركونده" هذا المساء تبدو حزينة على غير العادة، تشكل تقاسيم أديمها المترامي الأطراف وديانا تخترقه كأنها العروق تبث الحياة في كل مكان. هي تجاعيد حفرتها الطبيعة جداول يجري بها الماء رقراقا على مدار السنة. إنها نائمة في هذا المكان منذ الأزل تتوسد مرتفعات "إيدشل" وتلتحف بساطا أخضر كأنه السندس المهرب من الجنة. أسرع الشمس إلى المغيب وعلت القرية جلبة الضوضاء تشكّلها صيحات التيوس وثرغاء النعاج وهي تتدحرج صفوفًا متراصة تمتد من سفح الجبل إلى أعلى قمته. في المؤخرة كان "بوثعلاوت" رفقة كلبه "فرعاس" يحاولان إعادة النعاج الشاردة إلى الكوكبة. لم يكن هذا اليوم يختلف عن باقي أيام "بوثعلاوت" إلا أنه أحس بشعور غريب ينتابه منذ الصباح، ولم يكن يدري ما طبيعته إلى أن لمحت عيناه منظر بستانه وقد قطعت العديد من أشجاره، وعلى القرب منه منظر فرسه وهي مذبوحة تسبح في بركة من دمائها. لم يصدق عينيه فراح يفرّكهما بقوة. أمسك عصاه بكلتا يديه وهب مسرعا يستطلع الأمر وقد هاله أن يرى فرسه على تلك الحال، بينما قام الكلب "فرعاس" بمهمة اقتياد القطيع إلى الزريبة. تخرج مسرعة. من هم. باستهزاء ترد. أنت دائما تقوى على إيذائي أنا فقط. أنا اللقمة الوحيدة المستساغة لديك. ... اسكتي وإلا... قولي من هم. ؟ كان "بوثعلاوت" قد فكر بأن هذا ما هو إلا فعل جاره وغريمه الذي يكن له حقدا دفينًا. بحزم تقطع عليه تفكيره. لقد جاء العسكر إلى هنا وعبثوا بممتلكاتنا بعدما أشبعوني ضربا، وقاموا بذبح الفرس واقتلاع الأشجار وفي الأخير اقتادوا البقرة الوحيدة التي نملكها وتركوا هذه الورقة وطلبوا حضورك إليهم غدا. أمسك الورقة ومط شفّيته كمن يتوعد بالانتقام. قفزت إلى ذهنه صور الأوراق التي كانوا يرسلونها في السابق والتي كان يمزقها. تأمل الورقة مليا ثم قال في سره ويدها تمزقان الورقة. هكذا إذن. غدا يدفعون الثمن ولن يأخذوا مني فرنكا واحدا. أسدل الليل رداءه وسكن كل ذي حركة إلى مأواه وبقيت أصوات الصراخ المبعثرة من كل مكان تتوارد إلى أذني "بوثعلاوت" الذي أخذ مكانا له تحت شجرة البلوط القريبة من بيته، وراح يستعرض في مخيلته الطرق التي تمكنه من الانتقام لشرفه. فكر أن يبيع بعض الشياه ثم يذهب إليهم لتسديد الغرامة وينتهي الأمر، ولكن شيئا ما بداخله كان يدعو لاستعادة كرامته بالانتقام لشرف زوجته التي أهينت بالضرب، ولم يصل إلى فكرة معينة حتى مضى من الليل ثلثاه، فاستسلم للنوم يتوسد جذع شجرة البلوط ويلتحف بقايا برونوس. في الصباح استيقظ مبكرا كعادته ولم يكن قد فصل في أمره، فرفع عينيه للسماء كمن يستجدي قوة خارقة يترجأها أن تعينه على الخروج من الورطة التي وضعه فيها الغزاة الفرنسيون. وبينما هو كذلك لمح غصنا مستقيما يمتد من أسفل الشجرة إلى أعلاها وكأنه يلامس عنان السماء. وتبادرت إلى ذهنه صور الآلات التي رآها في إحدى حضائر الغزاة، وفي الحال لاحت بارقة أمل على محياه، وابتسم في وقار كمن يكتشف سرا عجيبا. أسرع إلى بيته وأحضر مجموعة من الأدوات الحديدية وقام باجتثاث الغصن ثم راح ينتزع لحاءه مستعملا ما توفر لديه من أدوات حادة، بعد ذلك قام بدهن باطنه بمختلف الزيوت، ثم أغلق إحدى طرفيه بقطعة حديدية كبيرة يتوسطها ثقب وضع فيه قطعة قماش محشو بالبارود الأسود، وجعلها تمتد إلى عدة أمتار مشكلة فتيلة قابلا للاشتعال، ثم قام بحمل كل ذلك إلى أعلى قمة في جبل "الرفاعة" وهناك نصب الغصن على حجر كبير ووجه فوهته إلى أحد مواقع الغزاة ثم أشعل الفتيل واختبأ. وكان النجاح حليفه. في صباح الغد تناهى إلى سمعه خبر يقول بأن قوات المستعمر تكبدت خسائر رهيبية إثر انفجار في موقعها الرئيسي... وأن هؤلاء قد شرعوا في حملة للبحث عن مصدر القصف فما كان على بوثعلاوت إلا أن أعد لهم مفاجأة أخرى ، فأعاد الكرة حيث وضع كميات أكبر من البارود، وما إن أشعل الفتيل حتى توقف الزمن لتتطاير أشلاؤه في كل الاتجاهات.